من وحي جوبو

الحيـــاة ...!

للأستاذ زكريا إبراهيم

هؤلاء الفلاسفة الذين طالما عنينا أنفسنا بدراسة آثارهم وتتبع أفكارهم ، مالهم قد حدثونا عن كل شيء إلا الحياة ؟ لقد ملأوا أسماعنا بأحاديثهم عن الفكر والوجود والعلة والقوة واللذة والغريزة ولكن أحداً منهم لم يحدثنا عن الحياة حديثاً شاملا مفصلا . أتراهم قد توهموا أن الحياة ليست شيئاً أكثر من الغريزة ، أو من حساب اللذات (على طريقة بنتام) ، أو من الأنانية وتقديس الذات (على طريقة نيتشه) ؟ ... ولكن ، لا ؛ إن الحياة شيء أكثر من هذا كله ، لأنها في جوهرها فيض وتوسع وامتداد . فإذا كان أبيقور يقول : « إن الكائن يمضي حيث تدعوه لذته » فان في استطاعتنا أن نرد عليه بأن نقول : « كلا ، بل إن الكائن ليمضي مدفوعا من تلقاء نفسه ، ثم يجد اللذة في الطريق . فاللذة ليست هي الشيء الأول ، وإنما الشيء الأول والأخير هو الحياة . » . والحياة تسير دون حاجة إلى قوة أعلى منها ، لأنها بذاتها حركة وقوة واندفاع . فليست الحياة حساباً للذات ، كما زعم بنتام ، بل هي فعل ونشاط وفيض مستمر .

أجل ، إن الحياة لتنطوي في صميمها على مبدأ الامتداد والتوسع والخصب والانتشار . فالوجود الحقيق إنما هو ذلك الذي يتمثل في تلك الحياة الخصبة المتألقة ، التي لا تألو جهداً في أن تفيض على الآخرين ، وتبذل من نفسها للآخرين ، وتشرك نفسها مع الآخرين . والكائن الحي ، إذا بلغ درجة كبيرة من الرقي ، فإنه يكون أشد نزوعا إلى حياة الجماعة ، لأن في هذه الحياة فيضاً وتوسعاً وامتداداً

والحياة لا يمكن أن تكون أنانية خالصة ، حتى إذا أراد المرء ذلك ؛ فان ثمة ضرباً من السخاء يلازم الوجود دائماً ، وبدونه يموت الكائن الحي أو تذبل نفسه . فإذا أردنا أن نستبقي حياتنا كان علينا دائما أن نزهر ؛ ومازهرة الحياة الانسانية إلا الايثار والتضحية وبذل الذات

إن الذات التي يزعمون أنها مغلقة ، هي في الحقيقة مفتوحة ، وهي على اتفاق بالفطرة مع الذوات الأخرى ؛ بل إنها لتنفتح شيئاً فشيئاً ، وأكثر فأكثر . وإذن فالامتداد نحو الآخرين ليس معارضاً لطبيعة الحياة — كما توهم بعض الفلاسفة — وإنما هو على العكس من ذلك موافق للطبيعة ، بل شرط ضروري للحياة المليئة الخصبة . — والواقع أن محبة الآخرين لا تفترق أبداً عن الحياة — الحافلة الفائضة ، لأن مثل هذه الحياة مثل الأمومة الواسعة التي لا تستطيع أن تقف عند حدود الأسرة . « إن ثدي الأم (كما يقول جويو) في حاجة إلى الشفاه النهمة التي تلتهمه وترتشف رحيقه التر ؛ كذلك قلب الكائن الإنساني حقاً ، هو في حاجة أيضا إلى أن يرتمي الآخرون في أحضانه ، لكي يجدوا فيه الغوث والنجدة . بل إن في قلب المحسن نزوعا باطناً ، وميلا دفيناً ، نحو أولئك الذين يتجرعون مرارة الألم » .

أليست الحياة إذن إيثاراً وتضحية وبذلا للذات ؟ أليس جويو على حق حين يقول : « لي يدان : واحدة أصافح بها من أسير معه في طريق الحياة ، والأخرى أنهض بها من يعثر . وفي استطاعتي أيضاً أن أمد كلتا يدي لهؤلاء . » ؟ أليست الحياة العليا إنما هي تلك التي لا تألو جهداً في أن تفيض على الآخرين ، كما سبق لنا القول ؟

إن اللذات الدنيا هي وحدها التي تتسم بطابع الأنانية . فحينما لا تكون هناك غير قطعة واحدة من الحلوى ، نجد أن الطفل يريد أن يستأثر بها . أما اللذات العليا فانها بطبيعتها الذات ليس فيها من الأنانية شيء .

قد يشعر الانسان بلذة فنية ، فهنا نراه لا يريد أن يستمتع بها بمفرده ، بل يريد أن يشعر الآخرين أنه يستمتع ويتذوق . فعند اللذة الفنية يريد المرء دائماً أن يعرف الآخرون أنه حي ، وأنه يشعر ، أو أنه يقاسي أو أنه يحب . إنه يريد أن يمزق نقاب الفردية .

والفنان الحقيق لا يريد أن يكون بمفرده عند مشاهدته لشيء جميل أو عند اكتشافه لشيء عليه مسحة الصدق ، أو عند شعوره بعاطفة نبيلة .

أليس الفن للحياة وبالحياة فكيف لا يظهر فيه طابع الحياة مع أنه هو المعنى الباطن للحياة ؟ ألم يقل جويو إنني حينما أبصر الجمال ، فهناك أود أن أكون اثنين (لا واحداً) » ؟ إذن فكيف